من البحّار القديم إليك

دلال خليفة

(الفصل الأول وجزء من الثاني)

ليت شعري هل تصلك هذه الرسالة يوماً؟

إنني أكتبها وقد أعلم أنها ربما لا تصلك قريباً كما أتمنى

وأنها قد تستغرق في الوصول إليك قرناً من الزمان،

أو يزيد،

أو قد تضل في الخضم العظيم فلا تصلك على الإطلاق،

ولكن كلي رجاء أنها مهما ضللتها الرياح

ومهما سافرت بها الأمواج

ومهما طال بها الزمان،

فلا بد أن تصلك يوماً،

لا بد.

فأما إن ضلت وغيّبتها الأمواج

فستكون الدنيا قد خذلتني إلى النهاية،

وأما إن وصلت،

فسلامٌ عليك تحمله الأمواج عبر المياه الزرقاء

وعبر رمال الشطآن، ومع أنسام البحر،

إليك،

أما بعد،

... فها أنت تقرأ هذه الرسالة، إذن فقد وصلتك رسالتي أخيراً!
الحمدلله.

قد لا تدرك مدى سعادتي بوصول هذه الرسالة إليك لأنك لم تكن قط في مكاني هذا، هنا في هذه السفينة.

إننا على ظهرها منذ سنين نكاد لا نعلم عددها، وكنا سعداء وهي تشقّ بنا عباب البحر وتنتقل بنا من مكانٍ إلى مكانٍ ومن زمنٍ إلى زمن، لا يرافقنا إلا البحر بأمواجه التي ترتفع وتنخفض فتصدر أصواتاً ألفناها حتى نكاد لا نشعر بها، ولكن جاء هذا الزمن الذي أصبحنا فيه لا نطيق سفينتنا، ونتوق إلى فراقها وفراق البحر. ما حدث لا أستطيع أن أوصله إليك إلا من خلال سرد قصتنا مع هذه السفينة التي شهدت حياتها وشهدت حياتي ورأتني أشيخ بين ألواحها العتيقة.

نعم، لقد أصبحت بحّاراً عجوزاً ولم أعد قادراً على أعمال الملاحة جميعها، لو رأيتني لرأيت بحاراً قديماً، أيْ رجلاً قد شاب سالفاه ولحيته بعد أن تحول رأسه إلى كتلة رمادية، وقد لوحت الشمس وجهه وأكسبت جسده كله سمرة محمرّة، ولرأيت ساعديْ رجلٍ غليظين أحرقت الشمس كثيراً من الشعر الذي يغطيهما وأحالت ما تبقى منه إلى اللون الأحمر، بيد أن هذه الغلظة وعبث الشمس يشيران إلى ماضٍ من العمل الشاق الدؤوب وليس إلى حاضر، إذ أن قوة هذين الساعدين قد ضعفت أمام تغضّنِ جلدهما، وأمام العروق المتعرِّجة التي برزت من مواضعها إلى السطح فأقحمت آثار الشيخوخة على فتوّتهما، وكذلك ضعف جسدي كله بوصولي الستين، لذا فأنا أسترق لحظاتٍ أستريح فيها في هذا الركن البعيد حيث لا يراني أحدٌ وأنا جالسٌ في استرخاءٍ أتأمل السماء، وأتأمل طيور البحر الجميلة التي تحلق فوق السفينة عندما تكون أقرب إلى البرّ فأشعر برفقتها البعيدة، ولكن هذه الطيور اختفت منذ مدةٍ طويلةٍ إذ ابتعدنا كثيراً عن آخر الموانىء، لا بد أنك سمعت يوماً أصوات صيحاتها الحادّة التي تأتي كهيئةِ الوصلات ثم تخفت، ليتني أستطيع أن أعبر لك عن وقع تلك الصيحات على نفسي، لكم أحب هذه الطيور إذ تجعلني أخرج من جو السفينة وأحلّق معها بعيني وفكري بعيداً حيث ترفرف أجنحتها، ولكن لنعد إلى قصتنا الآن.

الشيء الوحيد الذي لا أحبه في هذا الركن هو أن البحر أحياناً يرشّ عليّ رذاذاً دقيقاً فيُصيب وجهي وملابسي وهذه الورقة التي أكتب عليها، ولكني أحاول حماية مدادها من هذه القطرات التي لا أعلم متى ستضربني بها الرياح، ومع ذلك فهذه الرياح لا تقارن بالعواصف الهائلة التي تهبّ أحياناً فترجّ السفينة رجّاً وتجعلنا

نصاب بالرعب والهلع كما حدث في العام الماضي، وتلك العاصفة هي أول ما جعلني أفكر في اتخاذ الورق ملاذاً أكتب فيه رسالتي هذه إليك، ولكني لم أفرغ لذلك إلا الآن، أعذرني إن كنت أفرّع الحديث بما يبتعد بك عن لبِّ الموضوع فهذا شأن الشيوخ وشأني بعد أن تجاوزت الستين بقليلٍ و... لنعد إلى حكايتنا..

إن العاصفة التي حدثت في العام الماضي لم تبدأ في العام الماضي، وإنما حملت بها الأيام بعد أن احتوت بذورها سنين طويلة..

.... أنصت قليلاً،

هل تسمع هذه الرياح القادمة من بعيد؟

إنها تملأ الجو الذي ملأته صيحات النوارس الحادّة قبلها، إنها رياحٌ تحمل صوت بحرٍ غاضب، غيظه ليس شديداً جداً ولكنه زفرة من زفرات غضبٍ مخبأ قد أعلم بدايته ولكنّي لا أعلم متى ينتهي تماماً، هل تسمعها؟

أنصِت لهزيمها البعيد أو زئيرها الرتيب وشبه المتواصل إذ تأتي من المناطق القصّية، إنها ما تزال تأتي محمّلةً برطوبة البحر وغموضه وصبره، نعم، فرغم كل شيءٍ فهذا البحر صبور وإن تلاعبت بنا أمواجه أحياناً...

ها هي الرياح تهبُّ لها صفير، ها هي تهب وترفرف لها أطراف الأشرعة المطوية أعلى رأسي، وها هي أحرفي تكاد تفقد اتساقها إذ أخذت السفينة تتأرجح تحتي تأرجحاً خفيفاً لا خوف منه، أعلم أن لا خوف منه لأنني بحار قديم، وأيضاً لأنني قرأت مخطوط البحار القديم، أعلم متى يتعين علينا أن نخاف من تأرجح السفينة، وأعلم أي تأرجح يجب أن تأخذ له احتياطاتنا ونقذف له بتلك القوارب المعلقة على جوانب سفينتنا العظيمة هذه، ولكن هذا التأرجح ليس كذلك، إنه

تأرجحٌ يهدهدني ويجعلني أشعر بالنعاس فقد أفلت الشمس منذ مدة وحان موعد نوم البحارة منذ قليل، إنني بحاجة إلى شيء من النوم لأستطيع أن أحكي حكايتي مع السفينة، فهي حكاية ليست قصيرة وليست ككل الحكايات، إنها حكاية طالما ضحكت لبعض أحداثها ثم أشرفت على البكاء أو بكيت ثم أشرفت على الضحك، والأغرب من هذا كله أنها حكايةٌ لا أعلم كيف أبدؤها ولا كيف أنهيها، إنها حكاية بحار، وكما تعلم، فالبحار حكاياته مختلفة، وأطرافها مختلفة، فالأمواج التي تؤرجح سفينته والخضّم من تحته والسماء من فوقه لا بدَّ أن يكون لها دورٌ في الأحداث. وكيف لا يكون لموجةٍ عاتيةٍ أو سماءٍ صافيةٍ دورٌ في حكاية بحار على ظهر سفينة؟

... ما بالي؟

لقد رفعت يدي عن الورق لحظةً وأخذت أفكّر كيف أبدأ لك الحكاية ولكني لم أهتد إلى شيء. صدقني لا أعرف كيف أبدؤها، ولكن لا تقلق فسأبدؤها قريباً جداً، سأبدؤها لا محالة... لأنني لا بدَّ أن أوصلها إليك ولن تصل بلا بداية، وأيضاً لأنني بحّارٌ طالما صارع البحر العظيم، وطالما خاض الصعاب، فكيف تستعصي عليّ حكاية؟ ولكنني يجب أن أرتب فكري وكلماتي، وسأفعل بعد أن يذهب انفعالي هذا وفرحتي عندما رأيت الصندوق الصغير، هذا الصندوق الصغير هو الذي سيحمل إليك الرسالة كي تصل إليك سليمةً غير منقوصةٍ وغير مبتلة، صنعه لي صديقي البحار الجديد (والجديد ليست صفةً صادقةً إذ أنه معنا منذ أكثر من عشر سنوات، ولكننا نطلق ألقاباً على البحارة فتلتصق بهم إلى الأبد إذ أنّ من طبعنا نحن بحارة هذه السفينة أن نستعيض بالألقاب والصفات عن الأسماء)، لم أخبر صديقي هذا أنني أريد أن أضع في الصندوق هذه الرسالة، فقط

قلت له إنني أريد صندوقاً صغيراً جميلاً لا يدخله الماء، وقد صنعه بدقةٍ وجربه عدة مراتٍ قبل أن يقدّمه لي، رماه في البحر بعد أن ربطه بحبلٍ وربط فيه ثقلاً ليبقيه تحت سطح الماء زيادةً في التأكّد من صلاحيته، وتركه أياماً هناك ثم استخرجه وأخرج منه منديله جافاً لم تصبه قطرة ماء، إنه فنّانٌ ماهر، لو رأيته في جلسته المنزوية تلك وهو عاكفٌ على صنع الصندوق... ولكن قد لا يعنيك كل ذلك، وليست تلك هي القصة، القصة سأبدؤها عندما أجمع شتات فكري، لذلك فلا بدَّ أن أستريح الليلة وأكمل لك هذه الرسالة غداً صباحاً. سأبدأ الكتابة مع خيوط الفجر الأولى أو بُعيد الإفطار ولكني يجب أن أبدأها غداً بأيِّ شكل، لا بدّ أن تصلك هذه الرسالة قبل أن تصل السفينة إلى نهاية رحلتها الغامضة، فإلى لقاءٍ قريب.

ها قد عدت إليك ثانية فسلامٌ عليك، عدت بعد أن أضأت مصباحاً فالوقت ما يزال ليلاً ولكن النوم جفاني وشعرت برغبةٍ في العودة إلى ركني هذا وإن أصبح الجو بارداً، إن لياليا باردةً في هذا الموسم والرياح في هزيمٍ مستمرٍّ وإن كان هزيماً ضعيفاً يكاد يكون هامساً إذ أنها ذاتها تأتي ضعيفة، لذلك فعندما اخترقتُها لم تبعثر إلا خصلاتٍ قليلةٍ من شعري وبعض أجزاء ملابسي، ولكنها لم تقاومني وتحاول منعي من المشي وسطها كما تفعل عندما تكون عاصفة، لهذا فها أنذا... لقد لففت حولي لحافي السميك هذا الذي كلحت ألوانه وتآكلت أطرافه وفقد نسيجه اتّساقه القديم، وجئت إلى هنا بأوراقي وقلمي لأبدأ لك الحكاية كما أخبرتك أول الليل...

أبدأ؟

كيف أبدأ وبماذا؟ بالدوامة، أم بالمخطوط؟

إننا نتَّجِه نحو الدوامة إثْر تلك السفينة، وكل ذلك بسبب المخطوط... أظنُّ أن المخطوط هو ما يحسن بي إذن أن أبدأ به الحكاية لأنه سبب أشياء كثيرة... ولن أطيل عليك...

لقد كتب بحّار عجوزٌ ذلك المخطوط قديماً وتركه على جزيرةٍ فتناثرت صفحاته المصفرة هنا وهناك (وهذا ما لم أرده لرسالتي هذه إذ كلفت صديقي الشاب بصنع ذلك الصندوق الخشبي ليحفظها ويحملها إليك كاملة)، وكان سطح الخضّم الهائل المحتضن لتلك الجزيرة يحمل سفينتيْن لا يعلم بحارتهما شيئاً عما فعله ذلك البحار العجوز. كانت إحدى السفينتين سفينتنا هذه أما الأخرى فهي تلك الأخرى. ورست السفينتان على شاطىء الجزيرة، لا أحد يستطيع تحديد من وصل أوَّلاً ولكننا كنا جميعاً هناك نلتقط صفحات ذلك المخطوط. رسيْنا على جانبٍ من تلك الجزيرة ورست الأخرى على الجانب المقابل.

كنا عائدين من رحلةٍ أوصلنا فيها خمسين تاجراً إلى بلادٍ مختلفة وكان ربباننا ما يزال شاباً تملأ روح المغامرة قلبه، وكنا نسير في طريقٍ مختلفةٍ لأن الربان كان يريد أن يستكشف طُرقاً أخرى، وكان رجل الصارية آنذاك معتلياً قمتها وقد جلس على العارضة الخشبية واتكأ على عارضةٍ أخرى اتخذها لهذا الغرض. سراويله ترفرف بشدّةٍ تحت وقع الهواء والشمس طفلةٌ تحبو نحو الكون بأشعتها الغضّة، وأسفل من رجل الصارية كان الطاهي يغسل أواني الإفطار المبّكر في مطبخه وأنا والربان متكئيْن على الحافة نرقب مياه البحر المضطربة تحت الرياح. وإذ نحن كذلك سمعنا رجل الصارية يقول صارخاً: جزيرة، هناك جزيرة، إلى اليمين.

واجتمع الرجال حول الصارية ورؤوسهم متّجهة نحو قمتها، فأشار بيده إلى اليمين ثم كوَّر كفّيه حول فمه كيلا تتناثر كلماتُه فتضيع في الهواء وصاح:

- هناك، هناك!

وأشار ثانيةً بذراعه، ونظر الرجال إلى الربان، كلهم يريدون تحويل الدفة إلى "هناك"، إلى حيث اتجهت تلك الذراع النحيفة السمراء التي امتدّت كالعود الدقيق أعلى الصارية. ولم يقاوم الربان.. لم يكن معنا مسافرون وليس ثمة سببٍ يمنع من أن يُرضي في بحّارته وفي نفسه روح المغامرة، لذلك فقد اتجه بنفسه إلى المقود بينما أخذنا نصفّق بمرحٍ فرحاً بموافقته. وأخذت السفينة العظيمة تستدير شيئاً فشيئاً إلى اليمين حتى أخبره رجل الصارية بالكف عن الدوران والإنطلاق في الاتجاه الذي أصبحت فيه السفينة، ثم نزل بخفة وانضم إلى البحارة الذين اصطفوا على الحافة في مقدمة السفينة يريدون أن يروا الجزيرة عندما تلوح من بعيد.

ولاحت من بعيد؛ برزت لنا كتلةً سوداء أخذت تقترب وتخضرُّ وتظهر تفاصيلها حتى اكتمل مرأى الجزيرة وبدت كالحلم أمامنا وسط المياه الزرقاء...

ومضينا نحو ذلك الحلم الجميل نراه يقترب ويكبر حتى أصبح أرضاً عظيمة ممتدةً رست السفينة قريباً من شاطئها الطويل. ثم حملتنا إليها قواربنا التي تركناها تعانق الرمال الشاطئية الرطبة وسرنا بفرحٍ فوق أرضها الليّنة، فاستشعرت أقدامنا حنانها بعد خشب السفينة القاسي. وانتشر البحارة في الجزيرة بسرورٍ تستشفه من ضحكاتهم وهمهمات أصواتهم المرحة ومن صوت خطواتهم الرشيقة الخفيفة الوقع على الأرض عندما يصمتون؛ منهم من

يقتطف ثمارها ومنهم من يتأمّل أشجارها ويرقب طيورها الغريبة على الشجر، وخلفهم مشيْت والربّان بخطواتٍ لا تقل مرحاً ونحن نرمقهم مبتسمين...

كيف أصف لك تلك الجزيرة؟ لقد كانت جزيرةٌ رائعة الجمال حتى أننا عندما استلقيْنا بعد تجوالنا فيها في ظلال بعض أشجارها الوارفة الدانية الأوراق، الشديدة الخضرة، وأخذت الأنسام اللطيفة تداعب وجوهنا، وأخذت أصوات الطيور القريبة والبعيدة تتردد في آذاننا مع حفيف أوراق الشجر المرفرفة أعلى رؤوسنا، وشعرنا بسحر الطبيعة، ظننا أن السفينة قد غرقت بنا فمتنا ودخلنا الجنة، لفت نظرنا إلى ذلك الطاهي الذي كان يستنشق الهواء العليل وهو مستلقٍ على ظهره وقد ضم ثلاثاً من ثمار جوز الهند إلى صدره. وسَرَت فكرته بيننا كالنار في الهشيم واستسلمنا لها فلم يعارضه أحدٌ منا حتى هببنا بعد ساعةٍ من الاسترخاء نستكشف الجزيرة الساحرة.

بعد قليلٍ من تفرقنا سمعنا الطاهي ينادي بأعلى صوته:

- تعالوا جميعاً إلى هنا.

وخرجت كلماتُه ثانيةً إلا أنها خرجت هذه المرّة أقلُّ وضوحاً وبصوتٍ أكثر حدّةٍ بكثيرٍ وبتكرارٍ غريب:

"تعالوا جميعاً. تعالوا جميعاً."

"إلى هنا. إلى هنا."

"جميعاً إلى هنا."

وعندما اجتمعنا التففنا حول الطاهي وكان رافعاً رأسه إلى الأعلى وعلى وجهه نظرةُ استغرابٍ شديدٍ ينظر إلى قمة شجرة. كلنا اتجهت أبصارنا إلى هناك، وهناك رأينا طائراً أخضر ينظر إلينا بفضول.

كان يحرّك ساقيْه واحدةً واحدةً بانتظامٍ، وينتقل جسمه مع كلٍ منهما، مرّةً إلى اليمين ومرةً إلى الشمال، في حركاتٍ متتاليةٍ متماثلةٍ إلى حدّ التطابق، وكأنّه ينتظر شيئاً فطال انتطاره حتى استبدَّ به القلق.

- إنها ببغاء أيها الطاهي.

- إنها تتكلم.

- لماذا أنت مبهورٌ إلى هذا الحد؟

- لقد أحرجتني هذه الطيور إذ رددت ندائي.

وضحكنا كثيراً على الطاهي إذ كان وجهه المستدير محمرّاً خجَلاً وكان ما يزال ينظر إلى قمّة الشجرة.

- ها أنتم اجتمعتم، ولكن تلك الطيور لم تجتمع، لم يترك أيٌّ منها مكانه.

- ولماذا تجتمع؟

- ألم تنادِ بعضها بعضاً، وخاصة تلك التي هناك، إنها ما تزال تصرخ.

- وهل تنتظر أن تجتمع تلك الطيور لدى سماعها هذه الكلمات؟

- تذكرت الآن أنها لا تفهم، فقط تردد ما تسمعه وكأنها ببغاوات.

ثم ضحك وأردف:

- كأنها؟ ما أغباني!

- ولكنْ لماذا جمعتنا؟

حوّل الطاهي نظره إلى كمّيةٍ من الفاكهة التي كان قد جمعها ووضعها في ظلِّ شجرةٍ قريبةٍ وأشار إليها بيده قائلاً:

- جمعت لكم تلك الفاكهة ولكن تلك الببغاء أنستني الأمر.

وفيما اتجه الرجال إلى تلك الفاكهة المكوَّمة مُحدثين جلبةً كبيرةً عاد الطاهي ينظر إلى فوقٍ ولم يبق معه إلا أنا والربان الذي قال له:

- ما بك أيها الطاهي؟ ألم تر ببغاء قبل الآن؟
- رأيت... كنت قد نويت أن أصطاد عدداً منها لأصنع منها حساءً، ولكنْ عندما نطقَت فقدت هذه الرغبة.

ومضينا نتضاحك إلى حيث الرجال ثم تبِعنا الطاهي. وبعد الطعام أخذنا نتجول ثانيةً.

وظللنا نتجوّل ونحن مأخوذين بجمال الجزيرة حتى وجد رجلُ الصارية صفحةً مصفرةً بها كلامٌ غريب، أخذ يقلّبها بين كفيه ولم يكن بقارىء، ولكنه علم أنها كتابةً فعرضها علينا، فقرأنا له بضعة أسطرٍ منها ثم صمتنا متفكّرين في مصدرها، ثم كشأن البحارة المخلصين أخذناها إلى الربان نطلِعه عليها ونستفتيه فيها، وما إن وصلنا إليه حتى وجدناه يتأمّل ورقةً مماثلة. عندما لاحت له الورقة في يد رجل الصارية اختطفها باهتمامٍ وأخذ يقرأ ما كُتب فيها، لقد كان مبهوراً بها، وكانت تلك هي البداية.

Delalkhalifa.com